شـلر

للكاتب الكبير توماس كارليل

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

— ٤ —

لقد ساعد جوته شلر فى أموره العاشية حتى قبل معرفته به وصـداقته له ، وذلك بتقديمه وترشيحه لخـدمة ولاية (وايمر)

هو أن يتحمل المرء فى سبيل غيره التـاعب والمشاق . . وبهـذه الوسيلة وحدها يستطيع المواطن أن يصون نفسه وغيره معا فى وقت واحـد

وحيث أنك قد سلـكت طريقاً آخر حتى اليـوم ، فقد فتشت دائمـا عن منافعك فى خارج المجتمع ، ولم تفـكر إلا فى نفسك ... وقد أدى بك ذلك إلى أنك زدت ضعفاً على ضعف وانحطاطاً على انحطاط وعشت حياة كلها قلق واضطراب . .

أما وقد اعتزمت الآن أن تصبح حرا ، فإنه يتحتم عليك أن تسعى لتهذيب نفسك وتثقفه فى قوانين بلاد الأحرار وتعمل بمقتضاها ...

يجب عليـك أن لا تبقى فى معزل عن الاهتمام بمصير المجتمع الذى أنت أحدأفراده ، بل عليك الالتفات إليه والحفل بحقوقه ، ورعاية مصالحه وشرفه وكرامته ، والتفـكير فى شؤون فقرائه وأطفاله ، والانتساب إلى الجمعيات الخيرية التى تعنى ببذل المساعدة والمونة لهؤلاء وبالدفاع عن حقوقهم وبتعميم التعليم بينهم وغـير ذلك من الأمور التى تـكفل للجميع سعادتهم وهناءهم

وعليك أن تعلم أيضا أنه ليس فى هـذه فرد واحد لا يتصل بمواطنيه الآخرين بأكثر من ست روابط وطنيـة واجتماعية فى وقت واحد ، وهذا هو السبب فى أن مس الواحد منهم قيد شعرة يثير روابط الجميع ، فيتحرك الـكل وكأنهم شخص واحـد ...

— ياله من مجتمع سعيد !

«يتبع»

أحمد مصطفى الطيب

وتوظيفه فى أكاديمية بمرتب معين . وقد أدت هذه المساعدة التى جاءت لا على اعتبار عون ؛ بل على اعتبار خدمة متقابلة إلى نتائج ذات أهمية دائمة. وقد ارتفع شلر إلى أوج عظمة الفن وهو مطمئن إلى عطف ورعاية ونصح صديق واحد بين مئات الأعداء . وهكذا — اعتماداً على هذا التأييد من قبل صديقه — استمر شـلر فى تقدمه ونجاحه غير ملتفت يسرة أو يمنة ، وكانت أيامه مخصصة جميعها لتأدية واجبه الأقدس

وقلما نجد إنساناً يمـكن أن يساعد الآخر مثل هذه المساعدة وأن يفيده مثل هذه الفائدة ، لأننا نمودنا — كما هو الحال فى الواقع — أن يكون الإحسان مبتذلا فيه الذلة والفجيعة وقلة الذوق ، لأن منشآتنا التى تقوم بمثل هذه الأعمال الخيرية هى مؤسسات تافهة ومضرة ولو أنهـا تتحصن بأسماء وألقـاب . وأكثر من هذا إذا تفضل أحد أصدقائنا بمديد العون إلينا بإخلاص واهتمام ، فهو لن يعمل على تفهم مشاكلنـا ومعرفة احتياجاتنا الحقيقية حتى يمكننا من السير قدماً فى طريقنا ، بل نراه على العـكس من ذلك يصير ببساطة غريبة ، ويريدنا أن نغير اتجاهنا ونتبع سبيله الذى اختاره لنفسه ، وبذلك يجعل أمر إصلاحنا غير ممـكن لأننا لا ولن نقدر على ذلك . وهكذا فالناس كل بعيد عن الآخر ، وليس لأحد أن يساعده جاره ، بل أن ينتبه من جاره كى يأمن شره ويتوقى خطره ويتقى شواظ ناره وهو أمر صعب التحقيق

لقد تحدثنا سابقاً عن حماس شلر التام للأدب واعتبرنا ذلك وحده فضيلة توجته مدى الحياة . وأوضح دليل على حميته وغيرته للوصول إلى هذا الهدف فى كل أدوار حياته ، هو مواظبته على هذا السعى حتى أواخر حياته ، بالرغم من إصابته بمرض عضال هد حيله وزعزع أركان قوته . ولم يتجل نبل سجيته فى أية مرحلة من تاريخه ، كما تجلت فى هذه المرحلة — مرحلة المرض — فقد برزت البطولة غير المنظورة وهى فى عنفوانها عندما كان العدو الأسود يمزقه من الداخل ، ولـكنه كان قادراً على إبعاده بعض الشئ . وعندنا شواهد طبية على أن الخمس والعشرين سنة الأخيرة من حياته لم تخل لحظة واحدة من الألم المض . على أنه مع كل ذلك لم يتشك قط ولم يتضجر ابداً . نلاحظ ذلك فى مراسلته مع

جوته ، فتراه بشوشاً مشغولا ونادراً ما كان يتكلم عن أدوائه وأوصابه، وإذا ماتكلم عنها فبلغة شخص ثالث كأنه يعتز بأيامه التي بقيت في حوزته . على أننا نستطيع أن نقول إن أعظم أعماله الشعرية تعود إلى هذه الفترة ؛ خصوصا إذا تذكرنا كم وكم من أضراب روسو من الأدباء والشعراء السطحيين [1] الذين تحللوا وذابوا أسى ، على الرغم من المواهب التي أوتوها — لأنهم أصيبوا بأمراض عصبية انتهت بكثير منهم إما إلى الجنون وإما إلى التعاسة المهلكة ، على أن شلر — وهو في مثل هذه الأوضاع نفسها — كتب أعظم تأملاته وأحسن رواياته من (ولنشتاين) إلى (وليم تيل)

يقال إن هذه المحن لا يمكن تحملها إلا بالاعتماد على زكيزة الدين وحده ، ونحن نقول إن شلر كان له دينه الخاص . . وكان متعبدا وناسكا . . ولذا فهو لم يحتج في آلامه الأرضية إلى دعامة سماوية تسنده ، بل اقتصر على الدعامة المثالية في تحمل أوصابه في مثل هذا العالم البائس المريض

هل لنا أن نتكلم عن سعادته ؟ وا أسفاه ماذا يعني سمو العبقرية غير معدة قوية وشهية ممتازة ! . . أو لا تعني حتى كلمة روح معنى المعدة في بعض اللهجات السكالفونية ؟ أليس الجلوس في راحة والتمتع بالمشهيات والروائح العطرية والاستمتاع بالماضي والحاضر والمستقبل والإخلاد إلى الأحلام واليقظة بين الغينة والأخرى ما يدل على الطمأنينة والسرور والحياة الهانئة والبهجة الدائمة والسعادة الكلية

إن الأمر بالنسبة إلى العبقري المريض لا يتعدى كما يقول شلر (عالمه الذهني المثالي الداخلي الذي ينخره الداء المتباطئ ويستنزف جماله ويعصف به عصفا شديدا ، فلا يبقى منه إلا اليأس والقنوط والمرارة وإلا الحرمان الذي يلازمه حتى النهاية المرعبة) ولم يكتف شلر بهذا بل تراه يستطرد في ذلك فيقول (الويل لمن تضطرب إرادته وتخور عزيمته وتنحني رقبته أمام نير هذا العدو الجديد ! لأن البطالة والخيال المشوش يسيطر عليه وتطلق سراح ألوف الشياطين لتضايقه وتعذبه حتى تجننه. وا أسفاه ! إن عبودية الجزائر [2] تعتبر حرية إذا قيست إلى الآلام التي يعانيها العبقري المريض الذي انهد قلبه ورزح تحت كابوس الآلام . فكنه الطيني يصبح سجنا مظلما كما تصبح أعصابه منازل للقرف والعذاب، وروحه موئلا للعزلة السوداوية ، ويظل فريسة لأشباح القنوط ، ويندو منتحرا من جراء ازدياد الألم ، محكوما عليه بالموت في قيد الحياة وبالشعور بالوجود الأليم ، لا حول له ولا قوة ولا حتى شعور بها ، ومن المفزع أن يضع الموت أو فقدان الوعي التام حدا لمثل هذه التعاسة [3]) ومهما تكن الحالة مثيرة فعلينا أن ننظر إليها نظرة عطف لا نظرة استخفاف وتجرد . وعلى كل حال نقول إنه من العار على العبقري أن يتشكى . أليس في نفسه نور من السماء ليست عروش الأرض ببهائها إلا ظلاما بالقياس إليه والمقارنة به ؟ والرأس الذي يلبس مثل هذا التاج يأبى أن يرقد بقلق . إذا كان هذا النور السماوي هو الذي أعان سيمون السوري [4] على أن يصمد في أعلى عمود التعذيب دون أن يتزحزح إيمانه قيد أنملة ، فكم بالأحرى أن يكون الأمر كذلك إذا كان هذا النور مباشرا ووضيئا صافيا وخالصا من كل شائبة ؟ وإلا فدع حكيم العصر يتألم من الأوصاب والرزايا التافهة في صبر وأناة ؛ أو يعترف بأن المتعصبين القدامى كانوا أصدق منه تعبدا وأصفى سريرة وأرهف إحساسا . وقد يحدث بين الحين والآخر أن يعرض في بعض المجالس الأدبية والنوادي الثقافية حديث السعادة ، فينسى السادة المتناقشون شرابهم ليتكلموا في السعادة وعما إذا كانت هي الغاية الرئيسية من حياة الإنسان ، وأغلبهم يؤيد رأي بوب القائل بأن السعادة هي غرض وجودنا وهدفه ، ولكن المعارضة لا تكتفي بهذا بل تريد أن تفهم لماذا تكون الطبقة الجاهلة أسعد حالا من الصفوة المختارة . ومع ذلك فنحن لا نريد أن نستبدل أماكننا بهم؛ أليس مكتوبا أن زيادة المعرفة زيادة في الحزن ؟ أليس مكتوبا توهم تعلموا الحكمة واستزيدوا من العرفان لأن في

(١) هذا رأي الكاتب الكبير وليس لنا إلا أن ننقله بأمانة المترجم

(٢) هي بلاد الجزائر المعروفة وقد كانت آنئذ مسرحا لسوق النخاسة

(٣) حياة شلر ص « ٨٥ »

(٤) شهيد من شهداء المسيحية الأولى

هذا بداية الخير ؟ فإذا كان تعليمكم صحيحا فلماذا نشق فى النضال بكل قوتنا إذا لم يكن ذلك فى سبيل الحصول على السعادة والنجاة من الآلام والأوصاب ؟

وهكذا تظل السعادة بين الأخذ والرد بين هؤلاء الناطقة من دون الوصول إلى نتيجة قطعية مقنعة، وهذا مايجعلنا مضطرين إلى تركها على ما هى عليه من ارتباك وتخبط . ولكن هناك بعض النفوس الجدية التى لا تعتبر الحقيقة لهوا ولعبا بل (ماهية) الحياة. وهم لا يعتبرون الأشياء الظاهرية الجامدة إلا اعتبارا تافها ، بل يهمهم قبل كل شئ (النداء الداخلى) هذا النداء الذى إذا توقف فلن يفيده حتى استحسان الملايين من الناس . فإذا ما عثر هؤلاء على الحق الذى يبحثون للاهتداء إليه بكل تشوق وبكل قلق سعوا إليه جاهدين بغض النظر عن الخير والشر وأصبح الهدف الذى يسعى إليه الإنسان

إن أصل هذه القضية ناشئ — كما هو الحال فى كثير من القضايا تحت الشمس — من الاضطراب اللغوى ، فإذا كانت السعادة تعنى اليسر فى العيش ، فمن حق كل شئ أن يسعى لتحقيق مثل هذا اليسر ، ومن جهة أخرى ، فإذا عنينا بالسعادة والإحساسات السارة ، كما هو رأى الكثيرين من الناس ، فعندئذ يظهر عندنا شك فى القضية من الأساس . أما إذا تبصرنا بدقة فى الحقيقة القائلة بأن فى الإنسان شيئا أرفع من حب السرور ، بأى معنى كان هذا السرور ، فإننا نجد أن المعلمين والمبشرين كانوا يعيرون هذه المسألة ما تستحقه من التفات بالغ منذ بداية نشوء العالم ، وسيستمر ذلك إلى نهايته ، إن كانت له نهاية . وطبيعى ألا يخلو عصرنا الحاضر من الأشخاص الذين يصرون على هذه الحقيقة ويؤكدونها . وماذا يفعل القارئ بهذه الجملة الصغيرة من (رسائل شلر الجمالية) وهى تخص تلك المسألة القديمة ومسألة تحسين الأنواع ؟ انظر إليه كيف يعالجها بهذا الأسلوب الطريف إذ يقول « إن أول المكاسب التى أحرزها البشر فى مملكة الروح هو الخوف والقلق ، وهما نتيجتان من نتائج التعقل وليس الإحساس ؛ ولكن العقل أخطأ فى هدفه كما أخطأ فى طريقة التطبيق . وثمار هذه الشجرة بالذات هى السعادة سواء كان ذلك بالنسبة لليوم العابر أو لكل الحياة ، وهذا لن يزيدهم ذرة من الاحترام مدى الأبد . فاستمرار الوجود اللانهائى والسعادة لفرض الوجود والسعادة بحد ذاتها يخصان الشهية وحدها ، وهى عبارة عن كفاح الحيوانية التائقة إلى الخلود . وهكذا بدون أن يحرز هذا الإنسان أى شئ لإكمال رجولته الذهنية نتيجة هذا المجهود العقلى ، نراه يخسر حيوانيته السعيدة ، فيفقد الحاضر فى محاولته اليائسة لكسب المستقبل اللامحدود الذى لم يقصد لذاته بل الذى قصد هو الحاضر إليه بذاته (٥)

والظاهرة الوحيدة التى يتميز بها عصرنا هذا هو السعى فى سبيل الخير الحسى والسرور الشخصى فى أى شكل كان ، وهى الغرض الذى يسيطر على عمل الإنسان وواجبه ، وإذا كان فى قطيع الإنسانية عبيد للشهوة والشهية من أمثال أبيقور ، فإن هذه الإنسانية لن تعدم بعض الرجال ذوى الرسائل العليا لتحقيق القيمة الروحية للانسان ، وأن هذه القيمة ليست ميزاناً تقاس فيه الحوافز المختلفة؛ بل إن الروح شئ حى ذو قوة وحرية وهى تقوم بخدمة الحق والفضيلة والخير . ولكن الأوضاع فى الظروف الحاضرة تقاس بمقياس أقرب ما يكون إلى التعقل والرزانة . فمن جهة نرى أن الطريق الهادى الذى يقوم بتعبيده كثير من الأخلاقيين ، ومن جهة أخرى نرى الاضطراب سائدا فى صفوف الجماهير فى هذا السجن — الذى ندعوه بسجن الحياة — وزعماء هذه الجماهير يجعلون من المنفعة إله هذه الأيام ، والبنثاميون(٦) يمثلون المجلس الروحانى الأعلى لهذه الطائفة التى ديدنها السعى لملء بطونها وحسب ، وبالرغم من أننا لا نملك موهبة التنبؤ ، إلا أننا يمكن أن نقول إن هذه النار التى تتأجج فى صدور الكثيرين من الناس ذوى النفوس المخلصة ستنتهى بمعركة حامية الوطيس حاسمة المصير ، ومحور هذه المعركة سيكون بين العقل والمادة؛ ولكننا فى هذا الذى نقوله خرجنا عن سواء السبيل..وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى إذا سمح لنا الوقت بذلك

الكلام صلة

يوسف عبد المسيح ثروت

(٥) الرسائل الجمالية لشلر ص ٢٤٥

(٦) هم أتباع العالم الاقتصادى الانجليزى بنتام